تدبر القرآن في رمضان

اليوم رقم 22

ابن قرناس

بسم الله الرحمن الرحيم

حملة الأحزاب على المسلمين بزعامة روما، مشابهة بتهاوي أسبابها وعدائيتها وعدم وجود ما يبررها حملة أمريكا على العراق وأفغانستان واحتلالهما تحت مسمى قوات التحالف. وبعد اندحار قوات التحالف بقيادة روما عن المدينة، نزل القرآن يوجب على المسلمين معاقبة كل من اشترك فيها عقاباً صارماً ينتهي بالقضاء على كل معتد منهم قضاءً مبرماً. لأن بقاء أي طرف منهم يعني بقاء عدو قد يطعن خاصرة دولة الإسلام في أي وقت.

وقد اشترك مع قوات التحالف ضد المدينة القوى التالية: الدولة الرومانية، قريش، بضع قبائل عربية، فريق من بني إسرائيل يثرب، والمنافقين بطريق غير مباشر، وهؤلاء هم من يجب على المسلمين معاقبتهم بكل غلظة. فتم طرد الفريق الإسرائيلي من يثرب، وفتحت مكة، وتمت مهاجمة الروم في مؤتة، على أمل مواصلة حربها حتى القضاء عليها. إضافة لمعاقبة المنافقين، وملاحقة بعض القبائل العربية التي تعاونت مع الحملة.

ومن هنا يتضح أنه لولا الأحزاب لما تقرر فتح مكة في تلك السنة، وقد يموت رسول الله ولم يفكر المسلمون بالاستيلاء عليها. وحتى لو ازدادت قوة دولة المسلمين وتوسعت رقعتها، فقد تعرض قريش على المسلمين قبولها بالتعايش السلمي معهم، وتبقى مكة لهم. لكن حملة الأحزاب، وما ترتب عليها من معاقبة كل من اشترك فيها أوجب على المسلمين الخروج لمعاقبة قريش. وبمجرد اقتراب جيش المسلمين من مكة، أصيبت قريش برعب مشابه للرعب الذي أصاب بنو إسرائيل: {وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً{26} الأحزاب. فبادر رجال قريش بعرض اتفاقية على المسلمين، يتم بموجبها تسليم مكة لهم مقابل بقاء قريش فيها، مع تعهدها بعدم القيام بأي نشاط عدائي ضد الإسلام أو المسلمين. فكان فتح مكة، الذي لم يدم طويلاً. لأن الاتفاقية التي أبرمتها قريش مع المسلمين كانت غطاءً لخيانة جديدة ولم تكن قريش تسعى لاحترامها. لأن قريش نكثت معاهدتها مع المسلمين وتعاونت مع أعدائهم في حملة أحزاب أخرى، تهدف للقضاء على المسلمين. لكنها فشلت في تحقيق أهدافها، واستطاع المسلمون لملمة فلولهم والانتصار على قوات التحالف الثانية (حنين) وإجبارهم على الفرار.

ولأن المسلمين قد شرعوا في معاقبة كل من شارك مع قوات التحالف الأولى (الأحزاب) بكل غلظة وبدون هوادة، فقد عرفت كل القبائل والشعوب التي شاركت مع قوات التحالف الثانية أن مصيرهم سيكون مشابهاً. لذا سارعت قبائل الطائف وما حولها بإعلان استسلامها ودخولها تحت

طاعة دولة الإسلام. وسرعان ما تتابعت القبائل واحدة بعد أخرى لتحذو حذو قبائل الطائف، بعد أن رأوا أن الرسول يتسامح مع من يبدي أسفه ويقبل بالانضواء تحت راية دولة الإسلام. وفي خلال عام واحد دخلت كل شعوب وقبائل جزيرة العرب تحت حكم دولة المسلمين، وهو ما تتحدث عنه سورة النصر، آخر سورة نزلت على رسول الله، قبيل وفاته.

سورة النصر

لقد بدأ الوحي بسورة الفاتحة القصيرة في عدد آياتها الغنية بمعانيها، وختم الوحي بسورة "الخاتمة" النصر القصيرة في آياتها والغنية بأحداثها. فهي تروي كيف أن قبائل وشعوب جزيرة العرب قد استسلمت لدولة الإسلام، وتقاطر زعمائها على المدينة يعلنون ولائهم: {إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}.

وكتب السير والتاريخ تقول أنه بعد حنين وصل وفد من أهل الطائف للمدينة يطلبون من الرسول رد ما سباه من نسائهم ويعلنون استسلامهم، فقبل منهم الرسول ذلك، ورد لهم ما طلبوا. ولعل الحقيقة تتمثل في أن أهل الطائف بالفعل حضروا للمدينة وأعلنوا ندمهم على ما بدر منهم واستسلامهم لدولة الإسلام، ولم يحضروا لطلب رد النساء، لأن الرسول لم يسب لهم نساء لأنه لا يستطيع فعل ذلك. وقد سبق حضور وفد الطائف، إعلان قريش تراجعها عن نقض معاهدة الفتح، خوفاً وذلة، وليس عودة للحق.

ولما تسامعت القبائل الأخرى التي شارك بعض رجالها في جيش التحالف، سارع زعمائها للحضور للمدينة وإعلان الاستسلام، بعد أن علموا أن الرسول لم يعاقب أهل الطائف ولا قريش.

ولما سمعت القبائل والتجمعات السكانية الأخرى في جزيرة العرب بما حدث، سارعت هي الأخرى لإرسال وفودها للمدينة لتقديم ولاء الطاعة لدولة الإسلام التي أصبحت قوة ضاربة لا تضاهى في جزيرة العرب.

وفي خلال عام واحد، وقبل وفاة رسول الله، أصبحت جزيرة العرب كلها تحت حكم دولة الإسلام، ولو لم يسلم إلا عدد قليل جداً، يعيشون في المدينة ويشاركهم السكن فيها طوائف مختلفة ممن أعلن إسلامه ولم يسلم، وما بقي من قرى وبلاد جزيرة العرب فاستسلموا ولم يسلموا، بما في ذلك من بقي من كبراء قريش وسادتها السابقين.

ابن وراق

ولو وافقنا على أن بدر وقعت في السنة الثانية للهجرة، لأنه تقدير قريب من الواقع، وأحد حدثت في السنة التي تليها، أي الثالثة. والأحزاب في الرابعة، لأن القرآن لا يتحدث عن وقائع كثيرة وقعت بين أحد والأحزاب. وبعد الخندق كان لابد من معاقبة قوات التحالف. فتم جلاء بعض بني إسرائيل وفتحت مكة، في السنة الخامسة والسادسة. وحدثت خيانة قريش وتجمع جيش التحالف الثاني مع أهل الطائف ومن حولها، ومن عاونهم في نفس عام الفتح (السادسة للهجرة).

وفي العام السابع، تم إرسال جيش للروم خاض معركة مؤتة. ثم قاد الرسول حملة تبوك لملاقاة الغساسنة، في نفس السنة السابعة، وفي طريق العودة نزلت سورة براءة في رمضان من نفس السنة.

وفي حج ذلك العام (السابعة للهجرة) أعلن الرسول من على جبل الرحمة في عرفات براءة الله ورسوله من معاهدة مكة التي أبرمت يوم الفتح من العام الماضي بسبب خيانة قريش لها.

ويبدوا أن قريش سارعت بإعلان تراجعها واستسلامها قبل انتهاء المدة المعطاة لها، والتي تنتهي في آخر يوم من شهر محرم من العام الثامن للهجرة. وتبعها أهل الطائف ثم بقية القبائل والشعوب في جزيرة العرب. وهو ما تحدثت عنه سورة النصر، آخر سورة نزلت على الرسول قبل وفاته.

ولم تكن وفاة الرسول في ربيع أول من العام الذي جاء تالياً للحج الذي أعلن فيه الرسول براءة المسلمين من خيانة قريش. لأن تتابع وفود القبائل قد استغرق قرابة العام، بعد إعلان عرفات، أي طوال العام الثامن للهجرة، ويكون الرسول قد توفي نهاية العام الثامن أو بداية العام التاسع للهجرة، لأنه لو بقي مدة أطول لوقعت بعض الأحداث ولنزل الوحي يخبر عنها.

وإن كان أبو بكر قد توفي في العام الثالث عشر من الهجرة، كما ورد في كتب السير والتاريخ، فقد بقي في الخلافة من العام التاسع وحتى العام الثالث عشر، وهي مدة أطول مما قالت تلك الكتب.

وحتى لو كانت هذه الافتراضات خاطئة فلا عبرة لما ذكرته كتب التاريخ التي خطتها يد قريش.

ونكون قد وصلنا لنهاية برنامج اليوم، ولنا لقاء أخير مع اليوم رقم 23 بإذن الله.

والسلام عليكم

ابن قرناس